التناص الأجناسي في فيض الخاطر لأحمد أمين (ت١٣٧٣هـ) "دراسة لأبرز الظواهر والتأثيرات الجمالية"

د. عبدالكريم بن عبدالله العبدكريم
قسم الأدب ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث :

تنحو هذه الدراسة نحو البحث عن أبرز ظواهر التناص الأجناسي في كتاب" فيض الخاطر" للأديب أحمد أمين ت١٣٧٣هـ وتلمُّس التأثيرات الجمالية وراء امتزاج الخصائص الأجناسية في نصوص تلك المدونة النثرية المعدودة من أضخم مدونات النثر في الأدب العربي الحديث. ونبع اختيار العينة من استشعار الباحث بتردد كثير من النقاد والباحثين في تصنيف نصوص العينة، ولكون الكاتب استَقْرَضَ –ربما بدون وعي وإدراك كامل– من خصائص الأجناس الأدبية الأخرى ما أسهم في زيادة القيمة الجمالية لبعض نصوصه. وقد كانت أبرز الأجناس الأدبية تعالقاً بالمقالات والخواطر التي جمعها أحمد أمين في هذا الديوان النثري: السيرة الغيرية، والذاتية، والقصة، والشعر، وسجلت خصائص الرسالة حضوراً نسبياً ضعيفاً. وطاقات تلك الأجناس الأدبية دعمت القيمة الجمالية في نصوص"فيض الخاطر" ، وتغيير النمط السائد، ومفاجأة المتلقي، وتشويقه، والوصول إلى المتلقي ومرام الكاتب بطرائق مختلفة، كما كانت وسيلةً استجلبها –أحياناً– للتعبير عن همومه، وبثِّ ما في خاطره تجاه الظروف الشخصية والسياسية التي عايشها . إنَّ كتاب" فيض الخاطر" الذي تردَّد على ألسنة النقاد والدارسين منذ عقود من الزمن ضمَّ بين دفتيه عدداً كبيراً من المقالات التي نشرها كاتبها في صفحات المجلات والصحف، أو مما لم يُنشَر، فكان هذا الكتاب وعاءً مناسباً لنشره، وضمَّ بالإضافة إلى تلك المقالات عدداً من الخواطر تظهر على استحياء بين فينة وأُخرى، خلافاً لما ساد عند عددٍ من النقاد والدارسين أنَّ هذا الكتاب يمثل أنموذجاً للخاطرة بحدودها الدقيقة المتعامدة على الإيجاز والتكثيف، وضمور الأدلة والشواهد، واللغة الشعرية الموحية، والفكرة العارضة ، وغير ذلك من الحدود التي لا تبعدها كثيراً عن المقالة. واتضح من خلال البحث أنَّ تطبيق النظريات النقدية الحديثة على نصوص سابقة لنضج المنهج النقدي ناجعةً –أحياناً– للوصول إلى نتائج مهمة ذات أثرٍ في تجلية القيم الجمالية، ربما من زوايا لم يلمسها النقاد من قبل.

تمهيد :

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد :

فعلاقتي بأحمد أمين هي علاقةُ المعجب بإبداعه، وتنوّع موضوعاته، وقدرته على الفلسفة والتأمل، وطَرْق الموضوعات الطريفة النادرة، كما أن صلتي به أيضاً صلة المستفيد من كتابه النقدي "النقد الأدبي" فهو يملك ناصية الإبداع، وأدوات النقد، وكتابه الشهير "فيض الخاطر" من الدواوين النثرية المعاصرة التي جَمَعَ فيها عدداً كبيراً من مقالاته، وخواطره، ودفعني تردُّد الباحثين والدارسين في تصنيف نصوصه بين المقالة والخاطرة، وقدرة كاتبه على الإفادة من طاقات الأجناس الأدبية الأخرى – ربما بدون وعي وإدراك كبير- إلى دراسة ظواهر التناص بين الأجناس الأدبية في هذا الكتاب العظيم، وإبراز ملامح التأثير والجمال في تداخل تلك الأجناس، وحاولتُ أن أمزج بين التنظير والتطبيق، وأن تكون المعالجة نابعةً من النصوص دون تكلفٍ أو تحميلٍ لها بما لا تحتمل ، مستدعياً الحقبة التاريخية التي عاشها كاتبنا، وطوت صراعاً محتدماً بين المجدِّدين والمحافظين، وبزغت في العالم حينها ظروفٌ وأحداث ربما دفعت كاتبنا أن يبحث عن طرائق فنية تُفضي إلى مراده، وتسهم في إفراغ ما بخاطره، مع حرصه على التأثير في المتلقي، وإمتاعه.

وقد اجتهدتُ ما وسعني الجهد في الإفادة من كتابات النقاد المعاصرين ، وتوثيق النصوص من مصادرها ، والتركيز على القضية محل الدراسة من دون تشتيت الجهد في جوانب أخرى، كالتوسع في الحديث عن حياة الكاتب، والتعريف بالكتاب .

أسأل الله أن يبارك في الجهد، وأن يسدِّد القول.

أولاً – التناص الأجناسي (رؤية وصفية):

أ- رؤية النقاد حول حدود الانفتاح بين الأجناس الأدبية:

الجنس الأدبي قالبٌ تُصَبُّ فيه النصوص الأدبية[١]، فالشعر جنسٌ أدبي، وكذا القصة، والمسرحية، والمقالة، ولا يمكن لقارئٍ حاذق أن يقرأ نصاً أدبياً إلا بردِّه إلى جنسه الأدبي، واستيعاب حدوده ومعالمه العامة[٢].

وحين نتوسع قليلاً لتأمل تراسل الفنون نجد إشارات قديمة دالة على اقتراض الفنون من بعضها[٣]، من ذلك –مثلاً– عبارة الجاحظ ت٢٥٥هـ الشهيرة التي بدا فيها تعالق فنِّ الشعر بفنِّ الرسم، حين قال: (فإنَّما الشعر صناعةٌ، وضربٌ من التصوير)[٤].

كما أنَّ عناية النقاد القدامى اتجهت إلى بعض مباحث تراسل الفنون الأدبية، كعنايتهم بالاقتباس، والسرقات الأدبية، وحل المنظوم... ، ووضعوا لذلك قواعد ومحددات، وشواهد يحتذى بها، كما في كتاب "نثر النظم وحل العقد" للثعالبي ت٤٢٩هـ و"الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثور" لأبي سعيد العميدي ت٤٤٣هـ، ثم جاء ابن الأثير ت٦٣٧هـ وبسط الحديث عن هذه القضايا، وأفاض في نماذجها في كتابه الشهير"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " وجعل سبيل إتقان الكاتب لِكتَابةٍ أن يتقن حلَّ الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأبيات

---

(١) انظر : معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة ، مكتبة لبنان- بيروت، د.ت: ١٨٩.

(٢) انظر: الخبر في الأدب العربي، د.محمد القاضي، كلية الآداب بتونس ودار الغرب الإسلامي – بيروت، ط: ١- ١٤١٩هـ: ٢٧- ٢٨.

(٣) انظر: من صيد الخاطر (في النقد والأدب) د.وليد قصاب، دار البشائر- دمشق، ط: ١- ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م: ٧٦.

(٤) الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م: ١٣٢/٣.

الشعرية (حتى يصير له ملكة، فإذا كتب كتاباً، أو خطب خطبةً تدفقت المعاني في أثناء كلامه، وجاءت ألفاظه معسولةً لا مغسولة)[١].

وفي العصر الحديث بالغ بعض النقاد في استبعاد الحدود الصارمة بين الأجناس الأدبية، وامتنعوا عن تفريعاته، ورأوا أنَّ النص فضاء مفتوح، وباحةٌ مُشْرَعة، وفناء واسع، ومن أولئك الناقد الإيطالي كروتشه (١٨٦٦م- ١٩٥٢) الذي دعا إلى العفوية في الأدب بدل المفهوم التقليدي الصارم للأنواع الأدبية[٢]، وتَرَكَ أثراً واضحاً في التقليل من أهمية نظرية الأنواع الأدبية من خلال كتابه "الجماليات"الذي ألَّفَه عام ١٩٠٢م و(لاقى قبولاً وترحيباً كبيرين في الأوساط النقدية، وبخاصة في مجال الآداب والفنون، فلم يعد التمييز بين الأنواع الأدبية ذا أهمية ؛ لأن الحدود بينها صارت تُعْبَر باستمرار دون أي تهيب، فالأنواع تخلط وتُمزج فيما بينها، والقديم منها يُترك ويُحوَّر، وتُخلَق أنواع جديدة إلى حدٍ صار معها المفهوم نفسه موضع شك...)[٣].

وفي الجانب الآخر رأى آخرون أنَّ الأجناس الأدبية لها معالمها الواضحة، وتمايزها الناصع، وحدودها الصارمة، وأنَّ دعوى ذوبان الأجناس الأدبية في بعضها هي دعوة للفوضى الأجناسية، فالأدب العربي بين أجناسه حدودٌ لا تخفى على متذوق بسيط للنصوص الأدبية، بيد أنَّ تلك الأجناس بينها تعالقٌ وتقاطع ،

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق كامل محمد عويضه، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:(١) ١٤١٩هـ/١٩٩٨م :١/٩١.

(٢) انظر: نظرية الأدب، لعددٍ من الباحثين السوفيت، ترجمة د.جميل نصيف التكريتي، وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م: ٨٤.

(٣) موسوعة السرد العربي، د.عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، ط: ١ ، ٢٠٠٥م : ٣٠٥.

واقتراضٌ للتأثيرات[١] (وأنَّ هنالك تراسلاً حميماً، وتناغماً حاراً متبادلاً)[٢] بين الأجناس المختلفة، يقول الدكتور علي جعفر العلاق : (لا شك أنَّ الأجناس الأدبية قد بدأت منذ زمن ليس بالقصير في تصفية حساسيتها التجنيسية إزاء بعضها البعض، ولم يعد في تماسها الحميم ما يبعث على الدهشة أو التساؤل. لقد صار من الطبيعي أن يستعين جنسٌ أدبيٌ ما بخصائص جنس مختلف، أو أن نجد نسيماً ما يَنسَلُّ من حقلٍ أدبي مجاور ليغدو من مقتنيات حقل آخر، أو جزءاً من نسيج فضائه وحيويته...)[٣] .

وفي تقديري أنَّ القول بنبذ الحدود الصارمة بين الأجناس الأدبية، وانسلال خصائص فنٍ إلى آخر دون بعثرة هوية الأجناس ، وكذا القول بفتح فضاءات النصوص مع ردِّ كل نصٍّ إلى جذره الجنسي، هو القول الأقرب إلى الصواب، فتراسل الأجناس لا يعني تطابقها، و لا يمكن أن تكون هذه النظرية أداةً لطمس معالم الأجناس والألوان ، فالشعر شعرٌ ، والمقالة مقالةٌ ، والقصة قصةٌ... ، ولكلٍّ معالمه التي يقترضها جنسٌ من آخر بدرجات نصاعة متفاوتة.

ب- **التناص الأجناسي (وقفة مع المفهوم):**

التناص من المصطحات والمفاهيم السيميائية الحديثة[٤]، وتعد نظرية (الحوارية)

---

(١) انظر: نظرية الأدب، رينيه ولك، وواستن وارين، ترجمة محيي الدين صبحي، ود.حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ،١٩٩٧م: ١٣٢.

(٢) من صيد الخاطر: ٧٦.

(٣) الدلالة المرئية "قراءات في شعرية القصيدة الحديثة" ، د.علي جعفر العلاق، دار الشروق للنشر والتوزيع- عمان، ط: ١- ٢٠٠٢م: ١٢٠.

(٤) انظر: مصطلحات النقد العربي السيمياءوي، د.مولاي علي بو خاتم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٥م: ١٨٦.

التي أسسها الناقد الروسي (باختين) مقدمة أساسية وجذرية لمفهوم التناص الذي تبلور على يد الناقدة جوليا كريستيفا حين نفت خلو نصٍّ ما من مُدْخَلاتٍ نصيةٍ أُخرى، فالنص (عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات وكل نص هو تشرُّبٌ وتحويل لنصوص أُخرى). كما فسَّرته بأنَّه (ترحالٌ للنصوص، وتداخل نصي، ففي فضاء نصٍ معين تتقاطع، وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أُخرى)[١].

والدكتور محمد مفتاح في كتابه (تحليل الخطاب الشعري :إستراتيجية التناص) يُعَرِّف التناص بأنه: (تعالقُ نصوصٍ مع نص حَدَث بكيفيات مختلفة)[٢]والدكتور عبدالملك مرتاض يقترب من الدقة حين يُفسِّر التناص بأنَّه: (حقلٌ واسعٌ للصياغات المجهولة الصاحب، والتي قلَّما نستطيع مواقعتها بدقة ويقين، وهو أيضاً تضمينات لا واعية، أو تلقائية في النص دون اصطناع علامات التنصيص)[٣] مع التأكيد أن التفاعل بين النصوص لا يكونُ عن طريق الأبوة النصية المكشوفة، أو التقليد الإرادي (وإنما بواسطة تبدُّدٍ ينثال في لحظة الإبداع)[٤].

هذه إطلالة سريعة على المفهوم العام للتناص ، وسيقودنا هذا المفهوم إلى معرفة مصطلح "التناص الأجناسي" إذ إنَّ الأجناس الأدبية تتمايز بمعايير ثلاثة اقترحها الناقد عبدالسلام المسدي هي : معيار الصياغة، ومعيار المضمون، ومعيار

---

(١) علم النص ، جوليا كرستيفا، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبدالجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط:١، ١٩٩١م:٢١

(٢) تحليل الخطاب الشعري"إستراتيجية التناص" د.محمد مفتاح،المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء ،ط:٢-١٩٨٦م:١٢١.

(٣) مقالة في نظرية النص الأدبي، د.عبدالملك مرتاض، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٢٠١: ٥٧.

(٤) السابق:٥٨.

التركيب[١] ، وتجاذب تلك المعايير ، وتقاربها بين جنسٍ وآخر يعني أنَّ ثمة تراسلاً بين الجنسين الأدبيين ، والتفاعل سيتجاوز حينئذٍ دائرة النصوص إلى اقتحام حدود الجنس الأدبي ، وتجاذب سماته ، كتداخل خصائص المقالة مع القصة ، وتداخل خصائص السيرة الذاتية مع الرواية... ، فيرتكز التناص على انفتاح الجنس الأدبي على الأجناس الأدبية المتاخمة له ، والتفاعل معها على مستوى المضمون أو الشكل[٢].

ثانياً- فيض الخاطر والتناص الأجناسي (دوافع انتقاء العينة) :

فيض الخاطر ديوان نثري من أضخم مدونات النثر في العصر الحديث ، وصاحبه هو الأديب أحمد أمين ابن الشيخ إبراهيم الطبَّاخ (١٢٩٥هـ- ١٣٧٣هـ) ، وهو أحد القامات الباسقة في النثر الحديث ، كاتبٌ فلسفيٌ مبدع ، غزير الاطِّلاع ، واسع الثقافة ، مرهف الحس[٣] ، ولست بصدد التعريف به في هذا المقام ، غير أنَّ ما يعنيني -هنا- هو كتابه : (فيض الخاطر) الذي اتخذته عينة لتطبيق ظاهرة (التناص الأجناسي) لأسبابٍ من أبرزها :

- بزوغ التعالق الأجناسي من عنوان الكتاب الذي لَمَعَت فيه كلمة (الخاطِر) وهي كلمة تُحيل إلى جنسٍ أدبي هو (الخاطرة) وفي مقدمة الكتاب تجد اعترافاً صريحاً من الكاتب أن ما ضمَّنه في كتابه إنَّما هو مقالات نَشَرَ بعضها في مجلة "الرسالة" وبعضها في مجلة " الهلال" وبعضها لم يُنشر في هذه ولا تلك[٤] ، ولا ريب

---

(١) انظر: النقد والحداثة ، عبدالسلام المسدي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط: ١ ، ١٩٨٣م: ١١٤.

(٢) انظر: التناص في شعر الرواد"دراسة" ، د.أحمد ناهم ، دار الآفاق العربية القاهرة ، ط: ١ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م: ١١٥.

(٣) انظر ترجمته: الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين- بيروت ، ط: ٧- ١٩٨٦م: ١/١٠١.

(٤) انظر: فيض الخاطر ، أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط: ٤- ١٩٥٨م : مقدمة الكتاب.

أنَّ الفاحص في الكتاب سيجد مقالات بمعالمها المعروفة، وسيجد إلى جوارها خواطر تختلف عن المقالة؛ لكونها فكرةً عارضة، ولمحة دالة، وذات حجم قصير، لا تتسع للأخذ والرد، والتدليل والبراهين[١]، والتداخل من العتبة الأولى يُغْرِي ببحث التعالق بين الأجناس الأدبية في هذه المدونة.

● اللغة الراقية، والمضمون المتنوع، والعاطفة المتوهِّجة ظاهرةٌ في هذا المجموع. يقول أحمد أمين في مقدمة كتابه: (...ثمَّ لعلي أقَعُ على قرَّاء مزاجهم من طبيعة مزاجي، وعقليتهم من جنس عقلي، وفنهم من فني يجدون فيها صورة من صور نفوسهم وضرباً من ضروب تفكيرهم، فيشعرون بشيءٍ من الفائدة في قراءتها، واللذة في مطالعتها، فيزيدني غبطةً ويملؤني سروراً.

بعض هذه المقالات وليد مطالعات هادئة، وبعضها نتيجة عاطفة مائجة، وكلها تعبيرات صادقة...)[٢].

● التقاطع الأجناسي الناصع الذي يُطِلُّ علينا من عنوانات المقالات والخواطر، فأنت تلمح السيرة الذاتية، والقصة، والخاطرة وربما الرسالة من إشعاع عنوانات مقالاته وخواطره، من ذلك مثلاً: (الأحنف بن قيس)[٣] و(سلمان الفارسي)[٤] و(قصة)[٥] و (خطاب)[٦] و(قصة محتال)[٧] و(خواطر)[٨] ولا غرو فالكتاب متنوع

---

(١) انظر: الأدب وفنونه "دراسة ونقد" د.عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي- القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م: ١٨٤.

(٢) انظر: فيض الخاطر: مقدمة الكتاب.

(٣) انظر: السابق: ١/١٢٥.

(٤) انظر: السابق: ٢/٢٠٨.

(٥) انظر: السابق: ٣/١٦١.

(٦) انظر: السابق: ٦/٣٦.

(٧) انظر: السابق: ٦/٢٦٢.

(٨) انظر: السابق: ٨/٢٠٧.

المضمون، متباين المناسبات، وعلى إثر ذلك تنوعت أساليبه، ولغته، فاستلهم كاتبه من خصائص الأجناس الأُخرى ما يعينه على الولوج إلى نفس القارئ، والتأثير فيه.

● ومما يُعزِّز تمدُّد المقالة لاستيعاب خصائص الأجناس الأخرى عند أحمد أمين نظرته إلى المقالة أنَّها غير خاضعة لنظامٍ صارم، وحدود قاطعة، وأطلق لكتَّابها أن يُخْضِعُوها لأذواقهم وعواطفهم، يصرِّح بهذا الرأي في كتابه (النقد الأدبي) قائلاً: (والمقالة النموذجية تكون قصيرةً، ولكن القصر ليس صفةً ضرورية، فقد تكون المقالة طويلةً، والسرُّ الأعظم فيها أنَّها لا تخضع لنظامٍ معين كما قلنا، أو صورة محددة في كتابتها بل تتبع هوى الكاتب وذوقه ...)[1]، ويحكي عن نفسه كيف يكتب المقالة، فيقول: (...وقد اعتدت عند كتابة المقالة أن أرسم الموضوع إجمالاً، وإذا رسمته أَبَحْتُ لنفسي أن أغيره وأبدِّله إذا جدَّ جديد، وكثيرٌ من المعاني التفصيلية تأتي وأنا أكتب، ولهذا لَمَّا أُصِبْتُ في عيني ونهاني الأطباء عن الكتابة زمناً صَعُبَ عليَّ الإملاء، ولم أجد من غزارة المعاني ما كنت أجد عند مزاولة الكتابة بنفسي)[2].

ومن الماتع أن أتتبَّع تداخل الأجناس الأدبية في "فيض الخاطر" مع إدراكي الكبير أنَّ هذه الظاهرة لم تكن في حسبانه، ولم تَحضر في ذهنه في أثناء كتابته، وأنَّه كتب مقالاته وخواطره منبجسةً من ذاته، وعاطفته، وعقله، وثقافته المتنوعة، فجاءت في لَبُوسٍ مختلف، وتمدَّدت إليها خيوط من خصائص الأجناس الأدبية الأخرى فحاولت أن أبحث عن مظاهر تلك العلاقات، وفي أثرها الجمالي.

---

(١) النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي- بيروت، ط: ٤، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م: ١١٦.

(٢) حياتي ، أحمد أمين، المكتبة العصرية، صيدا –بيروت، ط: ١ ، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م: ١٧٩

ثالثاً- دراسة لأبرز ظواهر التناص الأجناسي وتأثيراته في "فيض الخاطر" :

أ- التناص مع السيرة :

المتأمل في (فيض الخاطر) يرصد عدداً كبيراً من المقالات والخواطر التي تداخلت مع جنس السيرة الغيرية التي يعمد فيها الأديب إلى الكتابة عن شخصيةٍ بارزةٍ؛ لجلاء شخصيته، والكشف عن عناصر العظمة فيها[1] ، وقد استدعى أحمد أمين عدداً من الشخصيات البارزة في مسيرة التاريخ الإسلامي والعربي ، ودَافِعُ الانتقاء غالباً ما يكون للبحث عن معالم القيم والأخلاق النبيلة، أو لأنه يجد في استدعائها ما يناسب السياق التاريخي ، والظروف المعاصرة التي عاشها، وذاق حلوها ومرَّها، وغالباً ما يعرض لأبرز معالم الشخصية العامة، ثم يتناول بتحليل فلسفيٍّ تأمُّليٍّ قيمةً جلية في تلك الشخصية، ولك أن تبصر حديثه عن الأحنف بن قيس حين بدأ مقالته بسردٍ لبعض سماته الحسية، فقال: (ضئيل الجسم، صغير الرأس، متراكب الأسنان، مائل الذقن، ناتئ الوجنة، غائر العينين، خفيف العارضين، أحنف الرجل...)[2] وهذه السمات تصدم المتلقي منذ الوهلة الأولى للمقالة، وكأن الحديث سيتجه إلى الذمِّ والاستنقاص، غير أن الكاتب يَنحرِفُ بالمتلقي عن هذا الظن المتنامي، فيقول: (ليس شيءٌ من قبح المنظر إلا وهو آخذٌ منه بحظ، تنبو عن مرآه الأحداق، وتتفادى من شخصه الأبصار ، وهو مع ذلك سيد تميم)[3] وهنا يثير الكاتب في نفس المتلقي رحلة البحث عن سيادة الأحنف، مع قبح صفاته الخَلقية، فيبدأ الكاتب رحلة استجلاء شخصية

---

(١) انظر : الأدب وفنونه (دراسة ونقد) : ١٥١.

(٢) فيض الخاطر: ١/ ١٢٥.

(٣) السابق: ١/ ١٢٥.

الأحنف، والبحث عن سر العظمة فيها، ويجول في سرد قصصٍ متوالية، رغبةً في تحريك قيم الشهامة والرجولة والكرامة في نفوس المتلقين، ثم يختم مقالته قائلاً: (فلله الأحنف قائداً في الحروب لا يبارَى، ولله الأحنف سيداً في قومه مطاعاً، ولله الأحنف حكيماً مجرباً، ولله الأحنف بليغاً مفوَّهاً...)[١].

ويتكرَّر تداخل المقالة مع السيرة الغيرية مرتكزاً على البحث عن القيم الخلقية الفاضلة في مقالات أُخر من مثل مقالة: (سلمان الفارسي)[٢] و(عروة بن الورد)[٣] و(صفحة من سير البطولة العربية: أبو عبيدة بن الجراح، صلاح الدين الأيوبي، أسامة بن منقذ)[٤].

ويتناول أديبنا عدداً من الشخصيات المعاصرة والحديثة مستجلياً جوانب التميز فيها، ومن أبرز الأمثلة على هذا النوع سلسلة مقالاته (زعماء الإصلاح في العصر الحديث)[٥] وعرض فيها للشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومدحت باشا، والسيد جمال الدين الأفغاني وآخرين، وفي حديثه – مثلاً- عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب يَلْمَسُ برفقٍ واضحٍ مولده، ونشأته، ورحلاته، ثم يبحث عن الجانب البازغ في هذه الشخصية، وهو الدعوة إلى التوحيد الخالص، ونبذ الشرك والبدع والخرافات، وهي قضايا لامس بها واقعه، وما يعانيه العالم الإسلامي حينها من فوضى الخرافات، وانتشار الصوفية والبدع (إذاً فما بال العالم الإسلامي

---

(١) السابق: ١/ ١٣٠.

(٢) انظر: السابق: ٢/ ٢٠٨.

(٣) انظر: السابق: ٥/ ٢٧.

(٤) انظر: السابق: ١٠/ ٨٩.

(٥) انظر: السابق: ٥/ ١٨٥.

اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى الإشراك مع الله كثيراً من خلقه، فهذه الأولياء يُحجُّ إليها، وتُقدَّم لها النذور، ويعتقد فيها أنَّها قادرة على النفع والضر...هذا هو أساس دعوة محمد بن عبدالوهاب، وعلى هذا الأساس بنيت جزئياته)[1] ثم يبحث عن التأثر والتأثير في دعوة الشيخ، فيقول: (اقتفى في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر وهو ابن تيمية وهو – مع أنَّه حنبلي- كان يقول بالاجتهاد، ولو خالف الحنابلة ، وكان حرَّ التفكير في حدود الكتاب، وصحيح السنة، ذلق اللسان، قوي الحجة، شجاع القلب لا يخشى أحداً إلا الله...)[2] .

وهكذا يفتش أحمد أمين في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومنابعها، وأبرز تأثيراتها، ومدى انتشارها، راسماً صورة لأبرز مرتكزات دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب – يرحمه الله- .

أمَّا **السيرة الذاتية** التي يتناول الكاتب فيها ذاته من خلال: الاعترافات، أو الذكريات، أو اليوميات[3] وغير ذلك مما ينضوي (تحت بند أدب البحث عن الذات، وكشفها للنفس وللآخرين)[4] فقد كان لأحمد أمين اليد الطُّولَى في إبداع هذا الجنس الأدبي، وترك لنا كتاباً نقش اسمه في ذاكرة السيرة الذاتية، وهو كتابه الشهير (حياتي) الذي بدأت إرهاصاته في دَرَج مقالاته وخواطره ، وأطلَّت على

(١) السابق: ٥/١٩٥.

(٢) السابق: ٥/١٩٧.

(٣) انظر: المعجم المفصل في الأدب، د.محمد التونجي، دار الكتب العربية، بيروت، ط: ١٤١٣: ١هـ- ١٩٩٣م: ٢/٥٣٦، والسيرة الذاتية في الأدب السعودي، د.عبدالله الحيدري، دار طويق للنشر والتوزيع- الرياض، ط: ٢، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م: ٧٠.

(٤) دليل الناقد الأدبي، نبيل راغب، دار غريب للطباعة، ١٩٨١م: ١٢١.

المتلقي في "فيض الخاطر" من نافِذَتَي المضمون والشكل .

أمَّا على مستوى المضمون فقد ترك أحمد أمين جملةً من الذكريات في مقالاته الموسومة بـ: (في الهواء الطلق) وتناثرت في مقالاته لقطات مهمة من حياته ، ومن الممكن أن يتشكل من مجموعها ومضات دالةٌ على حياة كاتبها ، فأنت تلمح بين فينةٍ وأُخرى شغف أديبنا بالتأمل ، والغوص في التفكر ، وغالباً ما يتجه صوبَ الطبيعة ؛ لتلبية هذا النداء المتجذِّر في نفسه ، تأمل هذه المقاطع :

- (على شاطئ البحر جلست اليوم وحدي ، واتجهت هذه المرَّة إلى التفكير فيما في البحر من الأحياء : كم من الملايين يولد في الساعة ، وكم من الملايين يموت... وانتقل ذهني إلى الإنسان كان شأنه في البر شأن الحياة في البحر ، فمنذ كان – قبل التاريخ وبعد التاريخ - وملايين الملايين تحيا ، ثم تفنى...)[1] ويمضي مستصحباً المتلقي في تأملاته إلى نهاية المقالة حين أعاد دلالة حُبِّه للتأمل ، فقال : (...وهنا رفعتُ رأسي فرأيت غروبَ الشمس في البحر ومنظره الجليل الرائع ، فتركت ما كنت فيه ، وفنيت في هذا الجلال الرائع).

- ويتأمل النار بمدخلٍ يحكي لقطةً داخلية من بيته ، فيقول : (كان الجو بارداً قارساً ، وكان الهواء عاصفاً قاصفاً ، وكان الليل مظلماً حالكاً ، فأويت إلى بيتي وكأني لا أجد جسمي ، وخلعت ملابس التكلف ، ولبست ملابس البساطة ، وفرحت بالنار الموقدة في حجرتي ، والجو الهادئ حولي ، فكل شيء يحيط بي نائمٌ وأنا والنار وحدنا يَقِظَان. جلست بجوارها أتأمَّل صنيعها ، وأستمليها معانيها)[2] وبعد رحلة تأمل وتفكر يأتي ختام المقالة مكرِّساً هذه السمة في شخصيته ، فيقول : (...وهنا أحسست أنَّ جسمي أخذ حظه من الدِّفْء ، ورأسي

(١) فيض الخاطر : ١/٧.

(٢) السابق : ٤/٢٣٧.

كأنه شعلة نار من التفكير في النار، فأطفأت نارها وأطفأت رأسي، وقلت: إلى مخدعي)[١].

وتلمح في جانبٍ آخر شغف كاتبنا بالحياة البسيطة، ونفوره من التكلف والتصنُّع، فيقول في مقالته: (بساطة العيش): (تعجبني الحياة البسيطة، لا تعقيد فيها ولا تركيب، وأكره ما أكره التَّكلف والتصنُّع وتعقيد الحياة وتركيبها)[٢] ثم يقول: (في بساطة العيش راحة النفس، وحفظ الصحة، وحسن التفاهم، والتخفف من الأعباء المالية، وشعورٌ بأنَّ الحياة المادية ليست كل شيء في الحياة حتى يضيع كل الزمن في تعقيداتها وتركيباتها...)[٣].

ويعترف أحمد أمين بأنَّه محرومٌ من الاستمتاع بالألعاب المختلفة التي انهمك فيها معاصروه، وأفنوا في لذتها أوقاتاً طويلة، فيقول: (حرمت –فيما حرمت- لذة اللعب، فلا أعرف نرداً ولا ألعب شطرنجاً، ولا علم لي بألعاب الورق على اختلاف ألوانها، وتعدد أشكالها)[٤] وبعد الاعتراف، يستذكر صاحبنا – في تقاطع واضح مع السيرة الذاتية التي تتعامد على الاعترافات والذكريات- ليلةً جمعته بلاعبين، فيقول: (وأخيراً رماني الحظ بليلة جمعت نخبةً من الأصدقاء هواة اللعب، جلست بينهم كما يجلس الأصم بين متحدثين، أو الأعمى بين رسَّامين...، يحرِّكون الورق ولا أفهم، ويصيحون ولا أعلم، ويتضاحكون ولا أفقه، ويزعم أحدهم أنَّه كسب ولا أدري لم كسب، وآخر أنَّه خسر ولا أدري لم خسر، وتبرَّمت بجلوسي بينهم، وزاد في تبرمي أنَّهم لم يشعروا بوجودي، ولم

---

(١) السابق: ٤/٢٤٠.

(٢) السابق: ٤/٢٢٧.

(٣) السابق: ٤/٢٣١.

(٤) السابق: ٢/٤٨.

يأبهوا بحضوري)[١].

ولعلَّ ألصق مقالاته بالسيرة الذاتية مقالته : (ستة أيام من حياتي)[٢] و(اعترافاتي)[٣] والتي جاءت متتالية في الكتاب، ركَّز في الأولى على أبرز الأيام التي أثرت تأثيراً فاعلاً في مسيرة حياته وتوجهاته، وقدَّم لها بمدخلٍ يفصح عن مرامه منها، فقال: (تمرُّ الأيام مروراً عادياً في حياة الإنسان والأمم، ولكن تحدث فجأة حوادث في بعض الأيام يكون لها الأثر الكبير في حياة الأمم والأفراد، وقد تكون الحادثة صغيرةً لا يؤبه لها، ولكنها تصبح ذات أثر فعَّال، ولو سُئِلْت ما هي الستة الأيام التي كان لها أكبر الأثر في نفسك لأجبت: ...)[٤] ثم بدأ في استدعاء الذكريات بشكل مكثَّف لستة أيام كانت هي الأبرز في توجيهه وتكوينه في الحياة.

أمَّا اعترافاته في المقالة الثانية فعكس فيها أبرز الفضائل والنقائص التي وجدها في نفسه، فاعترف -مثلاً- برقة عاطفته، وحبِّه للخير، ونصرة الحق، واعترف أنَّه جبان بمقدار شجاعته في قول الحق... وغير ذلك من الاعترافات الصريحة الكاشفة عن شخصية أديبنا بشكلٍ مباشر، وبقصدٍ واضح.

إني لألتقط بين مقالةٍ وأخرى من (فيض الخاطر) لقطات ناصعة من حياة كاتبها، ومن الممكن أن يتشكَّل من تلك الأحاديث التي جاءت في قوالب متعددة (اعترافات/ذكريات/يوميات) سيرةٌ ذاتية لأحمد أمين أفاد منها في كتابه الشهير (حياتي).

---

(١) السابق: ٢/٤٨.

(٢) السابق: ٩/١٩١.

(٣) السابق: ٩/١٩٥.

(٤) السابق: ٩/١٩١.

أمَّا على مستوى الشكل فقد تقاطعت مقالات أحمد أمين مع بعض اللوازم الأسلوبية للسيرة الذاتية ، فتلحظ استخدامه لأفعال الكينونة بتصريفاتها المختلفة : (كان- كنت- كنا...) ؛ وذلك (إمعاناً في التذكر ، وإشعاراً للقارئ بأنَّ هذه الأحداث الحلوة أو المرَّة كانت جزءاً من أعمارهم ، وأنَّها الآن أصبحت مجرَّد ذكرى وحسب)[١] وتلحظ تواتر استخدام ضمائر المتكلم ، أو ضمير الغائب الذي يتوارى الكاتب خلفه[٢] ، ويعمد – في بعض الأحيان – إلى السرد الروائي كما في مقالته (قصة من حياتي)[٣] ، وسأتوقف مع نماذج يسيرة أوضِّح فيها بروز بعض اللوازم الأسلوبية للسيرة الذاتية التي انعكست في مقالات وخواطر (فيض الخاطر) :

- (أُصبتُ بالزكام في هذا الأسبوع ، وفي ليلةٍ من لياليه أرقتُ ، فقد اعتدتُ أن آخذ نفسي من أنفي ، وأطبق فمي ، ولكن أنفي ـ وقد زكم ـ لا يساعدني ، فلا بد من مساعدة فمي... وأضأت المصباح ، ومتى أضأته فلابد من كتاب ، وفتحت المكتبة ، وتلمست كتاباً سهلاً...)[٤] وهكذا تمضي المقالة بتكرار لافت لضمائر المتكلم.

- (...كان من حسن حظي أن دلَّني صديقٌ لي على مس "بور" سيدة إنجليزية في نحو الخمسين من عمرها تجيد الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وتجيد الرسم والتصوير ... ولم تكن تحترف التعليم ، ولكني رجوتها أن تعلمني فقبلت ...

---

(١) السيرة الذاتية في الأدب السعودي : ٥٨٢.

(٢) انظر : السيرة الذاتية في التراث ، د.شوقي محمد المعاملي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م : ١٣.

(٣) انظر : فيض الخاطر : ١/٨.

(٤) السابق : ١/٦.

وكانت رغبتها تعليمي رغبة أُمٍّ تريد أن تربِّي ابنها، فكانت تدعو إلى بيتها إنجليزيين وإنجليزيات ...وكانت تنتقد أخلاقي، وتطلعني على عيوبي ...)[1] وما يعنيني –هنا – هو كثافة تكرار أفعال الكينونة في هذه المقالة التي استذكر فيها جزءاً من ذكرياته الحلوة .

ولا ريب أنَّ أحمد أمين أفاد من خصائص السيرة الذاتية، واستلهم لوازمها في مقالاته وخواطره بحثاً عن نفث همومه، والإفضاء بما في نفسه وبخاصة في تلك المدَّة التي عاشها، وشهدت صراعاً بين طرفي التغريب والمحافظة، ولأنه يجد في البوح الذاتي، والذكريات الخاصة عِبَراً وتجارب مهمةً يقدِّمها لقرَّائه ومجتمعه، إضافةً إلى الإمتاع ، وتجديد نَهَم القُرَّاء بسرد تلك التجارب، والذكريات، والاعترافات، فهي محببة للنفوس، وفي قراءتها متعةٌ تخفف من أعباء الحياة، وأوصابها.

ب- **التناص مع القصة :**

المقالة بمرونة بنائها (تتسع لأن يورد كاتبها قصةً قصيرةً في سياق مقالته يستميل بها قارئه، ويستعين بواسطتها على توضيح فكرته، أو بيان غرضه وهدفه، أو التمهيد لما يدعو إليه)[2] وهذا الملمح المتواتر في مقالات وخواطر أحمد أمين هو أول ملامح التناص الأجناسي مع القصة ؛ حيث اعتمد في عرض أفكاره، وإبراز مشاعره على القصة التي تأتي من وحي واقعه، وتحكي تجربته الخاصة ، أو قصةً يوردها من صفحات السابقين، ويعتمد فيها على الرواية، واستجلاب ما في كتب

---

(١) السابق :٢/٨.

(٢) المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث، د.عطاء كفافي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، ط:١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م: ٤١.

السيرة أو التاريخ القديم والحديث، ويكون إيرادها على سبيل الاستشهاد والتدليل.

ولا ريب أنَّ القصص المضمَّنة تسهم في تعضيد مُراد كاتب المقالة، وهي من الشواهد والأدلة التي يستعين بها الكاتب، ويجدها أداة للإثبات والنفي، إضافةً إلى كونها فرصةً يتخذها الكاتب لتشويق القارئ، وتجديد نشاطه، وجذبه إلى مرامه، تأمل -مثلاً- هذه القصة التي ضمنها مقالته الموسومة بـ(الضحك) وأراد من تضمينها إثبات قضيةٍ فلسفية تقوم على أنَّ موقفاً واحداً يراه أحدهم من زاوية سارَّة، وآخر من أُخرى حزينة. يقول: (... وقرأت مرّةً قصةً لطيفة أن بئراً رُكِّب فيه دلوان، ينزل أحدهما فارغاً، ويطلع الآخر ملآن، فلمَّا تقابلا في منتصف البئر سأل الفارغ الملآن: ممَّ تبكي؟ فقال: ومالي لا أبكي؟ أخذ الرجل مائي، وسيأخذه وسيعيدني إلى قاع البئر المظلم! وأنت ممَّ تضحك وترقص؟! فقال الفارغ: ومالي لا أضحك؟ سأنزل البئر وأمتلئ ماءً صافياً، وأطلع بعدُ إلى النور والضياء)[1].

ولعلَّ أبرز ملامح التفاعل بين الجنسين (المقالة/القصة) ظهر بجلاءٍ أكبر في استخدام كاتبنا للحوار، والحبكة، وهما من أبرز ملامح القصِّ.

فالحوار الذي جعله أحمد أمين من أمتع عناصر الرواية إذا أُدِّي أداءً جيداً، واقترب من واقع الحياة، ولاءم الموقف الذي يُعرضُ فيه[2]، وجدته- أعني الحوار- بهذه الشروط في بعض مقالاته؛ ربما رغبةً في بَعث الحيوية في النص، وطلباً للواقعية، وتغيير نمط العرض، ولك أن تتأمَّل هذا الحوار الذي استهلَّ به

(١) فيض الخاطر: ١/٩٥.

(٢) انظر: النقد الأدبي: ١٤١.

مقالته (في الهواء الطلق) :

(دقَّ جرس "التليفون" صباحاً :

- آلو...
- صباح الخير...
- أمدعوٌ أنت لحفلة عرس؟
- نعم.
- وستذهب؟
- نعم.
- إذن مرَّ علي في الساعة الثامنة مساءً لنذهب معاً.
- مع السرور

ووضعت السماعة، وكان الذي يتكلم أستاذنا الفيلسوف الذي حدثتك عنه، فأحسست شعوراً مزدوجاً؛ سروراً بألم، ورضا بغضب...)[1].

والحبكة أبرز عناصر الفن القصصي؛ إذ إنها تسهم في شدِّ المتلقي، ووضعه في جو من المؤثرات المتعمدة، وتحتاج إلى ربط محكم، وأحداث متشابكة تُصَمَّمُ بعناية بالغة، و دون افتعال واضح، ولا تطويل مملٍّ؛ لتصل بالقارئ إلى الذروة والانفراج، وهذه الخصيصة التي استوعبها أديبنا بشكل كبير تراءت في مقالاته المُتَعامِد جزءٌ منها على التشويق والتحفيز، فأصبح القارئ معها يلهث وراء أحداث متشابكة؛ بحثاً عن نافذة يُطِل منها على الحل، وقد تواتر هذا الملمح القصصي في مقالات صاحبنا، ومن ذلك ما جاء في مقالته الموسومة بـ (ضحية)[2]

(١) انظر: فيض الخاطر: ٥١/١.

(٢) انظر: فيض الخاطر: ٢٢١/٣.

التي اعتمدت على القص، وجاءت الأحداث فيها متنامية بشكل يدعو القارئ إلى متابعتها بنَهَم ، فهو يستهلُّ مقالته بعادةٍ لصاحبه يوم الجمعة يخرج فيها من بيته قبل طلوع الشمس إلى مكان قريبٍ من القاهرة ؛ لينفض عن نفسه ضوضاء الأسبوع، وملل العمل الرتيب، وفي إحدى الجُمَع اختار منطقة العباسية (وهنا تبدأ الأحداث في التنامي) وتغلغل في جبالها وأوديتها، ونال منه التعب مبلغه، ولم ير في رحلته إنساناً، ثم ألقى عصاه، وجلس ليسد جوعه، ويبحث عن الراحة (فلم أشعر إلا وشبح يبدو من بعيد)[1] - وهنا تبدأ الأحداث في التأزم - ثم ظهر أنه إنسان ، وأخذت مظاهره تبدو شيئاً فشيئاً (... لكنه إنسانٌ عجيبٌ حقاً، ليس ككل الناس الذين رأيتهم ؛ أبيض البشرة ، بياض الأجنبي ، ويلبس جلباباً أزرق كلبس البلدي ، ملامح وجهه وزرقة عينيه وشكل رأسه واصفرار شعره دلالة على أنَّه أوربي صميم، وطاقية رأسه المشبكة، وحفاء قدميه المتيبِّسة دلالة على أنه مصريٌ بائس فقير)[2] وأمام تلك المفارقات ترتفع حدَّةُ الأزمة في ذهن القارئ، ويجد نفسه متلهفاً لمتابعة المقالة ليصل إلى الحل، ويستمر صاحبنا في سرد الأحداث... فيجلس ويتجاذب مع جليسه أطراف الحديث، ثم يقرِّب طعامه فيلحظ نهمه في الأكل، وبعد برهةٍ من الزمن يغادر هذا الشخص الغريب، ويحتفظ قبل مغادرته بعنوان مضيِّفه، ويبقي السرُّ دائراً في نفس صاحب الحدث، وتبقى المفارقة غير محلولة .

وذات يوم طُرِق الباب، فإذا الطارق صاحبه يوم العباسية، ففرح به فرحاً شديداً ، ورآه بهيئته تلك ، فأدخله البيت ، وحدَّثه بكل شيء إلا ما يتصل

(١) السابق: ٣/٢٢١.

(٢) السابق: ٣/٢٢١.

بأمره، وجهَّز له طعاماً دسماً (فأكل بنفس النَّهم الذي عهده) وقبل انصرافه وضع يده في جيبه ، وأخرج كراسةً طلب من المُضيِّف أن يقرأها...

وبعد هذه الأحداث المتنامية يبدأ الحدث في التجلي، ونقف على أولى درجات الحل؛ حين نظر في الكرَّاسة، فقال: (...هي يوميات لهذا الشاب منظمة مرتبة ، ذكر فيها أهم ما استرعى نظره في دقة وإحكام ... إنَّه شابٌ هولندي، تخرَّج من جامعة هولندية، وتخصص لدراسة اللغات الشرقية والدراسات الإسلامية، ورأت جامعته نبوغه وجدَّه فمنحته مكافأة دراسية، وإجازةً طويلة يقضيها في بلد عربي إسلامي؛ ليتقن العربية والإسلاميات، فلم يجد لذلك خيراً من القاهرة...)[1] سكن حياً شعبياً ، واختلف إلى مشايخ الأزهر، وتعلم العربية الفصحى ، وأراد أن يدرس تفاصيل الحياة الاجتماعية في مصر، حتى وصل إلى أوكار أهل اللهو ، وغشي أماكن الحشاشين، فأراد أن يجرِّب صنيعهم ، فغاب في أوحال الإدمان، فشعر بفتورٍ وخمول ، وضعفٍ في القوى ، وانصرافٍ عن الدراسة والتحصيل، فلم يكتب لجامعته بعدها حرفاً، وانقطع مَدَدُهم المادي، ولم يجد عملاً إلا في قهوة تركها سريعاً ، فهام على وجهه ، وأصبح في حالٍ مزرية.

وبعد أن تجلَّى الحل ، واتضحت الصورة أمام المتلقي ختم كاتبنا المقالة بتتميم القصة وقفلها حين قال على لسان صاحبه : (...فكرت طويلاً فيما أستطيع أن أعمله لإنقاذ إنسانيةٍ ضالةٍ معذَّبة ، وزهرةٍ كانت يانعةً فذبلت وجفَّت وسقطت.

فهداني التفكير إلى أن أذهب به إلى من يُعنى بأمر الهولنديين ، وكان يستطيع أن يهتدي بنفسه إلى ذلك لولا أنَّه سلب قدرة التفكير وقوة الإرادة ، فشرحت لهم

(١) السابق: ٣/٢٢٤.

حاله ، وتفاهمت معهم أن يسفّروه إلى بلده فرحبوا بالفكرة ونفذوها. ثم انقطعت عني أخباره ولم أدر –بعدُ– من أمره شيئاً)[١].

والمكان عنصرٌ آخر من عناصر القصة تجلّى فيه التفاعل بين هذين الجنسين الأدبيين أيضاً ؛ ذلك أن كاتبنا يستغرق في توصيف دقائق المكان ؛ ليشعر المتلقي بواقعية الأحداث، ونزوعها من بيئته، ومعايشة ما يصحبها من وقائع، فيكون تأثيرها في نفسه أبلغ، وانجذابه إليها أكبر. ومن مقالاته التي ظهر فيها عنصر المكان بشكل واضح مقالته: (البيوت الثلاثة)[٢] التي حدثنا فيها عن قصرٍ فاخر، جال بالمتلقي بين أقسامه ، وعرَّفه على محتوياته، وروائع أثاثه، فقال :

(...قصر فخم بُني على أحسن طراز، وله حديقةٌ غناء سعدت بأحسن الأشجار، وأجمل الأزهار أفرد منها مربع للعبة "التنس" وتدخل القصر، فيبهرك جماله وأثاثه، كل حجرةٍ فيه فُرِشَت بعناية على طراز خاص، وروعي في أثاثها أن يكون منسجماً مع لون الورق الذي كُسيت به حيطانه، ومع اللون الذي ينبعث من مصابيحها ؛ وقد فرشت أرضها بالسجاد العجمي الذي تَغوص فيه قدم السائر عليه، وإذا أُضيئت مصابيحها رأيت النور ولم تر مصدره ...، وأُعدَّت غرف النوم بأجمل الأسرة وأفخمها ، وأثمن الفراش وأنظفه، وشُغِلت ملاءات الأسِرَّة بأجمل أنواع التطريز ...)[٣] وهكذا يمضي في تفصيل دقيق، وإسهاب واضح، يتناسبُ مع غاية الكاتب، ولا يتلاءم مع فن القصة الذي لا يحتملُ مثل هذه التفصيلات، وإنما يتكشَّف الوصف فيها بشيء من التدرج، وفي مواطن متفرقة

(١) السابق: ٣/٢٢٦.

(٢) انظر: السابق: ٨/٩٢.

(٣) السابق.

يتكوَّن من مجموعها توصيفٌ واقعي للمكان.

ولا تخلو مقالاته الأخرى من إحالةٍ واضحة إلى المكان والزمان اللذين احتضنا الأحداث، فتراه – مثلاً- يلح على توصيف المكان والزمان في أغلب استهلالات مقالاته الموسومة بـ (في الهواء الطلق) رغبةً في معايشة المتلقي لمشاعر الكاتب، وبحثاً عن الواقعية من جديد، من ذلك إشارته إلى قضاء الوقت الماتع في جو الأهرام المشمس. يقول :

- (دقَّ "التليفون" صباحاً فإذا هو صوت الصديق قال:

الجو باردٌ واليوم صحو ، والشمسُ تؤذِنُ بأنَّها ستبعث إلينا دفئاً لذيذاً، فهل لك أن أمرَّ عليك بسيارتي فنستمتع بالشمس في سفح الأهرام)[1] .

- (كانت الرحلة هذه المرة إلى رجلٍ كبير قد طوى مراحل الشباب...زُرْته في ضاحيةٍ من ضواحي القاهرة ضُحَى، والجو باردٌ، والشمس جميلة تبعث بدفئها، فتنعش النفس، وتردُّ الحياة...وبعد قليل كنا في الهواء الطلق ، والجو النقي، والسماء الصافية، والشمس الساطعة ...)[2].

ويستغرق كاتبنا في توصيف بعض شخصياته ؛ ويستجلبهم ذهنياً للمتلقين ؛ ليعيشوا معه الأحداث والوقائع ، وليظهر قدراته في توصيف ملامح شخصياته بدقة وتفنن، ولأن الإطناب في رسم الشخصيات يستحوذ على الذهن فيكوِّن نمطاً عند المتلقي، فيحيل تكرار الاسم في المقالة إلى ذلك النمط المتكوِّن ،كشخصية حسن النجار التي رسم نمطها بقوله: (...شاب في نحو الثلاثين من عمره، مهزول الجسم، أصفر الوجه ينتعل نعلاً بالية، ويلبس ثياباً رثة، وعلى رأسه طربوش

(١) من سلسلة مقالاته " في الهواء الطلق": ٨/٨٧.

(٢) من سلسلة مقالاته "في الهواء الطلق" : ٥/٤٣.

أسود ، وأعلاه أحمر، قد دفعه إلى الوراء ليُظهر "قُصَّته" من شَعْره، فرَّعها فروعاً، ورفعها إلى السماء لتناطح السحاب، ينظر إليك بعينٍ منتفخةٍ كأنه قريبُ العهد بنومٍ طويل ثقيل...)[١].

وفي بعض مقالات وخواطر أديبنا يبدو التناص بين المقالة و القصة بمقاربة كاتبنا لـ "التيار الواعي"[٢] ؛ حيث يورد الكاتب أحداثاً ذهنية ، طواها عقله، وجَرت في ذهنه وأفصحت عنها مقالاته أو خواطره، فيعتمد فيها على التذكُّر والمناجاة والاستحضار والأحلام وغير ذلك فيبدأ بحدثٍ واقعي له علاقة من قريب أو بعيد بما سَيَرِدُ في خاطره، ثم يسترسل في ذكر الأحداث والوقائع التي يستغرقها فضاؤه الذهني، ثم يستفيق في نهاية مقالته ليعود إلى الحدث الذي بدأ به، ليفاجئ المتلقي باستفاقته من حالته الذهنية الباطنية ، تأمل - مثلاً – مقالته (في الطريق)[٣] التي بدأها بقوله: (مررت أمس في الشارع فرأيت "عسكري المرور" يرفع يداً ، أو يصفّر ... ولا من يجرؤ على مخالفته كأن في يده عصا سحرية تُرغم على الطاعة)[٤] ثم يمضي في غرضه من المقالة مستشهداً ومستحضراً بعض

---

(١) مقالة (نجار ونجار): ١/١٤٧.

(٢) تيار الوعي مصطلح استخدمه عالم النفس (ويليام جيمس) ثم استخدمه النقاد في الرواية التي أُطلق عليها روايات تيار الوعي، فقدمته الناقدة "فرجينياوولف" على أنه أسلوب التسلسل العفوي، أو أسلوب الشيء بالشيء يذكر، وهو في الرواية يعتمد على الحالات الشعورية والنفسية، كالتذكر والمناجاة والاستحضار والأحلام والاستباق وغيرها. انظر: التشكيل المكاني في رواية تيار الوعي النسائية السعودية ،سامي الثبيتي "رسالة ماجستير" جامعة الملك عبدالعزيز، ومقالة: "تيار الوعي رؤية جديدة نفسية مكانية طرح جديد مع دراسة تطبيقية " مصطفى عطية جمعة، منتدى القصة العربية، على الرابط:
www.arabicstory.net/

(٣) انظر: السابق: ٥/٣٤.

(٤) السابق.

الأحداث والقصص ، وفي نهاية المقالة يُفَاجَأ القارئ بقوله : (ثم انتبهت من تفكيري ، فإذا أنا جاوزت عسكري المرور بمراحل ، وضللت قصدي من غير وعي...)[١] وكأنه أراد أن يحصر أحداث المقالة في تأملاتٍ فكريةٍ استدعاها في ذهنه وهو إزاء هذا الموقف.

ويتكرَّر هذا النمط من التفاعل بشكلٍ لافت في (فيض الخاطر) فتجده في موضعٍ آخر يبدأ مقالته بقوله : (على صخرةٍ مشرفة على البحر في "المكس" جلست وحدي)[٢] واتَّخذ بذكاءٍ واضح من هذا المدخل سانحةً للحديث عن الوحدة ، ثم جاءت الخاتمة بعد الاسترسال والاستشهاد والإفضاء بالمراد ليعود إلى الحدث الذي بدأ به ، فيقول : (...ثم ماذا ؟! وجاءت موجة عالية فلطمت الصخرة لطمةً قوية ، أصابني رشاشُها فتنبهت من أحلامي ، وعدت من حيث أتيت)[٣].

وتكرُّر الحديث الباطني في مقالات وخواطر أديبنا يُفَسِّر روح التأمل والتفكُّر والروحانية التي امتلأت بها نفس كاتبنا ، وتثبت رهافة حسِّه ، ورقَّة مشاعره ، وهي من جانبٍ آخر تفسر لنا عنوان مدونته التي فضفض بها ما يجول في خاطره.

لقد كانت المقالة القصصية من أبرز مواطن استقراض خصائص القصة ، وظهر في جنباتها مؤشرات واضحة تدل على دراية أحمد أمين بالخصائص القصصية ، غير أنَّ تلك السمات بقيت في قالب المقالة ، وكان أثرها متفاوتاً بين تعضيد الأفكار ، واستيراد الشواهد ، والبحث عن إقناع المتلقي ، وإضفاء ملمح فني يُعَزِّز جمالية النص ، ويفضي بمهارة الكاتب الأدبية.

---

(١) السابق : ٥/٣٧.

(٢) السابق : ٢/١.

(٣) السابق : ٢/٥.

التناص مع الشعر:

يتمايز الشعر عن النثر بحدودٍ واضحة يستطيع القارئ البسيط أن يدركها من الوهلة الأولى، وفي صدارة تلك الحدود: الوزن والقافية، غير أنَّ الشعر يلتقي مع النثر الأدبي في كثيرٍ من السمات الفنية الأخرى، الأمر الذي حدا ببعض النقاد أن يقاربوا بين الشعر والنثر الفني بما أسموه بـ(القول الشعري)[١] حيث تسقط الأوزان والقوافي ، وتبقى اللغة الشعرية الكثيفة المُعتمدة على الإشارية والرمزية.

واللغة في مثل تلك الأقاويل تنحرف عن الأداء العادي إلى أداءٍ بياني تتعاضد فيه اللغة والأخيلة ؛ ليقدِّم الأديب الأشياء المتباينة ، والعناصر المتباعدة في قالب منسجم .

وجاء مفهوم الشعر عند بعض النقاد القدامى مُفصِحاً عن اهتمامهم بالخصائص الشعرية التي تتجاوز الوزن والقافية، فحازم القرطاجني ت ٦٨٤هـ يُعرِّف الشعر بأنَّه: (كلام موزون مخيَّل مختصٌ في لسان العرب بزيادة التقفية)[٢] وحدُّ الشعر عند ابن خلدون ت٨٠٨هـ يقوم على الكلام البليغ (المبني على الاستعارة، والأوصاف المُفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقلٍ كل جزء منها في عرضه ومقصده عما قبله وما بعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به)[٣].

ونقل التوحيدي ت٤١٤هـ مقاربة الشعر مع النثر الفني حين سأل صديقه

---

(١) انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب "نقد الشعر" د.إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط: ٢، ١٩٩٢م: ٢١٦- ٢٢٠.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: ٢، ١٩٨٩م: ٨٩.

(٣) مقدمة ابن خلدون، لابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١ ،١٤١٣هـ- ١٩٩٣م: ٤٩٢.

مسكويه عن مرتبة كل منهما فكان مجمل جوابه : (أن النظم يزيد على النثر بالوزن فهو أفضل من هذه الجهة ، أمَّا إذا اعتبرت المعاني فإنها مشتركة بينهما ، وليس من هذه الجهة تميز أحدهما من الآخر ، بل يكون كل واحد منهما صدقاً مرة ، وكذباً مرة ، وصحيحاً مرةً وسقيماً أُخرى)[١] .

وعلى هذا فإنه (كلما تحقَّق قدرٌ من الخرق للمعايير اللغوية العادية اقتربت اللغة من جوهر الشعرية)[٢] .

وأحمد أمين الناقد كان مع هذا الفريق ، استهجن أن يكون الشعر شكلاً فحسب ، بل رأى أن أكبر مزية فيه هي : إثارة الشعور ، فقال في كتابه (النقد الأدبي) معلقاً على من قَصَرَ مفهوم الشعر على الوزن والقافية : (...وعيب هذا التعريف أنَّه لم يلتفت إلى أكبر مزية للشعر ، وأحد أركانه ، وهو إثارة الشعور ، وعُني بالشكل فقط من بنائه على الاستعارة والأوصاف ، وكان خيراً منه أن يقول : إنَّه المبني على الخيال ، المثير للعاطفة...)[٣] ثم قال : (فالشرطان اللذان يجب توافرهما في الشعر هما : الوزن والقافية والاتصال بالشعور ، فإذا وجد الشرط الأول دون الثاني فنظم لا شعر ، وإذا وجد الثاني دون الأول فنثرٌ شعري)[٤].

وقد جاءت بعض قِطَع أحمد أمين النثرية في حُلةٍ أدبيةٍ راقية ، رأى فيها الأشياء من زاوية انحرفت عن رؤية الآخرين ، واستطاع أن يبعث في الجمادات الحياة ، وأن يستخرج من تافه الأمور فكرةً بديعة ، ورأياً طريفاً يستفزُّ القارئ ، ويثير فضوله ،

---

(١) الهوامل والشوامل : ٣٠٩.

(٢) من مقالة "البلاغة ومقولة الجنس الأدبي" محمد مشبال ، مجلة عالم الفكر ، العدد(١) ٢٠٠١م : ١٢٩.

(٣) النقد الأدبي : ٧٩.

(٤) السابق : ٨٠.

وهنا تلتقي كتابات صاحبنا بالشعر في وجهٍ من الوجوه يتعامد على تكثيف الصور الجمالية، والرمزية، وخلق الانسجام بين المتناقضات، فيستوقفه –على سبيل المثال– منظر النار الملتهبة فيستلهم من هذا المنظر صورةً لا تطرأ على المتأمل فيها مرَّات عديدة ، فيقول: (...يُعجبني فيك – أيتها النار – ميلك إلى السمو دائماً، يلعب بك الهواء في نواحيك، فتقاومين وتعارضين، وقد يتغلَّب عليك الحين بعد الحين، ولكن لا تملين ولا تخضعين، حتى يملَّ هو فيسكن، وتستمرين في تساميك أبداً، وفي تعاليك دائماً؛ فتباً لمن يخضع لأول عاصفة، ويطأطئ رأسه لأول صدمة...

لقد أبت السماء أن تنزل من سمائها، وتتنازل عن عليائها، فأنَابَتْكِ في الأرض عنها، ومَنَحَتْكِ أعظم صفاتها، وهي الضوء والحرارة والقوة، فضوءك من ضوئها، وحرارتك من جنس حرارتها، وقوتك بعض قوتها، وكأنك تبرهنين على ولائك لها، فتميلين دائماً للصعود إليها! تستطيعين أن تمزقي الظلام، فتكوني آية الليل كما كانت أمك آية النهار، وتستطيعين أن تقهري البرودة ، وتبعثي الدفء إذا غابت أُمك ، وتستطيعين أن تبعثي الحياة بالحرارة؛ وهل الموت إلا برودة؟

ثم أنت بقوتك نفَّاعة إلى أشد حدود النفع، ضرَّارة إلى أشد حدود الضرر. فيك الحياة والموت . هأنذا أستدفئ بك، وأحذر القرب منك، وهذا الأكل تُنضجينه وتحرقينه، وهذا القطار تسيرينه وتمزقينه...)[1] .

ويبزغ التناص بين النثر والشعر في النص السابق من خلال الفكرة (النار) التي

(١) فيض الخاطر: ٣/٢٣٧- ٢٣٨.

انحرفت رؤيتها عن السائد من رؤية الناس، واستطاع أن يعكس تلك الرؤية التأملية العميقة بلغة شعرية مكثفة، من أبرز أدواتها: التكرار الذي عدَّه بعضُ النقاد من أبرز خصائص الشعر الذي يرفعه في عيون النقاد[١]، وقد كانت أبرز قوالبه: السجع (سمائها/عليائها/عنها/صفاتها...) و تكرار الكلمات والصيغ (الحين بعد الحين/لا تملين ولا تخضعين/وقوتك من قوتها...) الذي أسهم في تكثيف الفكرة التي يرومها الكاتب، ويدور في فلكها.

ومن أدوات الشعر الظاهرة في هذا المقطع الطباق والمقابلة (التعالي/الخضوع، البرودة/الدفء، الحياة /الموت، الحرارة /البرودة) ، وهذه الأداة تسهم في إنتاج المعنى بأكثر من وجه [٢]، فتؤدي إلى تكثيف الفكرة والإلحاح عليها، كما تنتج قيماً صوتيةً دالة، وتثير ذهن المتلقي إزاء التضاد الوارد في مساحات قصيرة من النص.

والصورة من ألمع عناصر الشعرية ، وبها يتفاوت الشعراء ؛ إذ تظهر قدرة الشاعر في إقامة علاقات منسجمة بين عناصر متباعدة، فتكون حينئذ أداة لتكثيف الأثر الجمالي في النص، ومباغتة المتلقي بغير ما اعتاده الذهن. يقول الدكتور جابر عصفور: (إنَّ أهم ما يميز الشاعر عن غيره هو القدرة التخيلية التي تجعله قادراً على الجمع بين الأشياء المتباينة، والعناصر المتباعدة في علاقاتٍ متناسبة تزيل التباين والتباعد، وتخلق الانسجام والوحدة)[٣] .

وبمقدار ما يستطيع الناثر أن يبدع في الصورة فإنه يقترب خطوةً أو خطوات من

---

(١) انظر على سبيل المثال دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تعليق محمود شاكر، مطبعة المدني- القاهرة، ط:٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م :٨٥.

(٢) انظر: البلاغة العربية "قراءة أخرى" د.محمد عبدالمطلب، مكتبة لبنان "ناشرون"١٩٩٧م :٣٥٥.

(٣) مفهوم الشعر "دراسة في التراث النقدي" : ٢٨٢.

النص الشعري، وهكذا وجدت كاتبنا يلتصق حيناً بالنص الشعري من هذا الباب فتراه يُبدع صوراً يتلقفها القارئ بأناة ، ويحتاج لتبديدها أن يُعمِل ذهنه حتى يبلغ غايتها، ويشعر أنَّها وليدة تأمل طويل، ومثل هذه الصور هي المبتغاة في الشعر ؛ إذ إنَّ أفضله ما أعطاك معناه بعد ممانعة، وأحسنه ما اعتراه غموضٌ شفَّاف، وأمثلة هذا كثيرة في "فيض الخاطر" منها على سبيل المثال:

- (...وهل نتاج الكاتب إلا قطعة من نفسه يفرح ؛ فيرقص قلبه، وينقبض ؛ فيسيل قلبه بالدمع)[1] .

- وقوله وقد أكل أكلة ساء هضمها، فتحدَّث عن العالم حوله : (...ونظرت إلى العالم فتجهمته، رأيته ثقيل الروح، فاسد المنطق، يمجُّ السمعُ نغماته، ويعاف الطبعُ منظرَه، وتأخذ بخناقي ألاعيبه وأحداثه.

أيُّ شيء فيه يسرُّ؟! إن هو إلا جيفة تنبحها الكلاب، وميتة يتساقط عليها الذباب...

ليست الدنيا إلا قطرةً من شهد في بحار من علقم، وذرةً من سعادة في أمواج من شقاء ؛ حتى إذا استيأست النفس ، وبلغت الروح التراقي سخا بقَبسٍ من نعيم، ثم أطفأه بريح عاتية من عذاب...)[2].

- وقوله متحدثاً عن الأزهار: (...وهذه الأزهار تخالفت أعمارها كما اختلفت أعمار كل حي ؛ فزهرةٌ سرعان ما تذبل، وزهرة تطول حياتها، ويطول جمالها، ويكاد يكون أجملها شكلاً أقصرها عمراً، كالشأن في الإنسان قلَّ أن يعمَّر نابغٌ، ويهرم عبقري كأن الطبيعة تغار من نبوغه أو عبقريته، أو كأنها تضن به عن أن

(١) فيض الخاطر: ١/٨٧.

(٢) السابق: ١/٢١- ٢٢.

يكون نعمة جيل، فتخترمه ليكون مفخرة دهر...)[١].

- ومن ذلك قولُه متحدثاً عن المدينة وهمومها: (...لوددتُ أني خلعتُ نفسي في المدينة يوم فارقتها، وتمنيت أن تكون النفس كالثوب تخلعه حيناً وتلبسه حيناً، ويبلى فتجدِّده، وتكرهه فتغيره...)[٢].

والاستشهاد بالأبيات الشعرية، وتضمينها في المقالات والخواطر مثَّلَ ظاهرةً من أبسط ظواهر التناص الأجناسي، فالتناص -كما يراه أحد الباحثين- في أبسط صوره- (يعني أن يتضمَّن نصٌّ أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين)[٣].

وقد اتخذ أحمد أمين من الأبيات الشعرية أداةً يستهلُّ بها بعضَ مقالاته، فيواجهك في افتتاحها بأبياتٍ شعرية تعضدُ غايتَه من المقالة، كما في مقالته "المثقفون والسعادة" التي بدأها بقوله:

(قرأتُ قولَ المتنبِّي:

ذو العَقْلِ يَشْقَى في النعيم بعَقْله وأخو الجهالةِ في الشَّقَاوةِ يَنْعَمُ

وقرأتُ قولَ الآخر:

كم عاقلٍ أعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقَا

هذا الذي تَرَكَ الأفْهَامَ حَائرةً وصَيَّر العالمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقَا

---

(١) السابق: ٨/١٩٥.

(٢) السابق: ١/٢١٥.

(٣) التناص نظرياً وتطبيقاً "مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية رؤيا، هاشم غرايبة، وأحمد الزعبي، مكتبة الكتاني- الأردن، ط: ١٩٩٣، ١م: ٢.

وقول ابن المعتز:

وحـلاوةُ الدنيا لجاهلها ومـرارةُ الدُّنيا لمن عقلا

وقول ابن نباتة :

من لي بعَيْش الأغنياء فإنَّه لا عَيْشَ إلا عيش مَنْ لم يعلم

وقرأت كثيراً مثل هذا في الشعر العربي يدور حول لعنة العالم ؛ لأنه يعذّب العالم ، ويسعد الجاهل...)[1].

وأحياناً تأتي الأبيات الشعرية في طيَّات المقالة لتعضيد فكرةٍ ، وتأييد رأي، وبحثاً عن تغيير النمط عن المتلقي، وتجديد همته ونشاطه، من مثل حديثه عن نفسه حين قال: (بل لتمنيت أن أكون كدودة القزّ تكون دودة حيناً، ثم تكون فراشة حيناً، أرشف من هذه الزهرة رشفة، ومن هذه رشفة، وأنشر جناحي في الشمس، أعيش في جمال وأغيب في جمال، كما تغيب الشمس الجميلة في الشفق الجميل...ولكن أنَّى لي هذا؟! ولو كان لشكوت وبكيت، فأنا كما خُلِقَ المتنبي:

خُلِقْتُ ألوْفاً لو رَجَعْتُ إلى الصِّبا لفَارَقْتُ شَيْبي موجَع القلب باكيا)[2]

وخاتمة المقالة هي آخر ما يعلق بذهن المتلقي، ويبقى في نفسه، ولابد أن تكون نتيجةً للمقدمة والعرض ، وأن يوجز فيها مرامه، وهي السانحة الأخيرة لإقناع القارئ[3]، وقد وجد أحمد أمين أنَّ الأبيات الشعرية هي خير ما يَختِم به -أحياناً- من ذلك مثلاً مقالته: (مقياس الشباب) التي تحدَّث فيها عن شيب

(١) السابق: ٣/٧٦.

(٢) السابق: ١/٢١٥.

(٣) انظر: معالم كتابة المقالة، جاكلين بيرك، ولويس بوتان، ترجمة: د.مانع الجهني، نشر: النادي الأدبي في القصيم، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م: ٨٩.

الرأس، والعارضين، وختمها بقول الشاعر:

قَالَتْ كَبِرْتَ وشِبْتَ قلتُ لها هذا غُبَارُ وقائعِ الدَّهْرِ[١]

وأستطيع أن أقول: إن أحمد أمين اقترب من الشعرية في بعض مقالاته وخواطره في "فيض الخاطر" وجاء بعضها في قوالب هي أقرب إلى الأقاويل الشعرية التي تلبَّست ببعض الخصائص الشعرية، فاتسمت بلغة إشارية كثيفة تستوقف المتلقي؛ ليستمتع بأدائها، وليجد الفكرة تُعرَضُ بقالبٍ غير مألوف، وهنا يحدث التأثير والإثارة، فينحرف النص من لغته العادية البسيطة إلى لغة أدبية راقية هي ألصق بالشعر.

د- التناص مع الرسالة :

يبدو التناص بين جنسي المقالة والرسالة في "فيض الخاطر" أقلَّ من غيره، وقد آنس أحمد أمين تداخلاً بين هذين الجنسين حين كتب رسالةً لصديقٍ، ثم اكتشف في ختامها أنَّه انحرف عن كتابة الرسالة إلى المقالة، فقال: (...آسف لأني حدثتك كثيراً عن نفسي، وقد أردته خطاباً، فلما بدأته نسيت فكان مقالاً، فقد كنت في الصباح أكتب مقالاً فسَرَت عدوى الصباح إلى المساء)[٢].

وأول معالم التعالق بين الجنسين تبدو من العنوانات؛ إذ تجدها -أحياناً- تبدأ بحرف الجر (إلى) المشير إلى المُسْتَقْبل، كما في مقالته (إلى أخي الزيات)[٣] الذي يشعر المتلقي قبل قراءة المقالة بأنَّها تطوي رسالةً إلى الأديب أحمد الزيات، أو من مثل عنوان مقالته الأخرى (خِطاب)[٤].

---

(١) انظر: فيض الخاطر: ١/٢٧٥.

(٢) من مقالة (خطاب) فيض الخاطر: ٧/٣٩.

(٣) انظر: السابق: ١/٢٢٢.

(٤) انظر: السابق: ٦/٣٦.

ويظهر أنَّ كاتبنا اقتبس بعضَ رسائله ، ورأى مناسبة إخراجها للقرَّاء في قالب المقالة ؛ نظير مضمونها ، وتأثيرها ، فيذكر المخاطب حيناً ، ويخفيه حيناً آخر ، وفي مثل تلك المقالات تجد خصائص الرسالة حاضرةً ، من مثل : الاستهلال بالمرسل إليه ، وتاريخ الإرسال ، ومن ثم عبارات التحايا ، والبوح الذاتي الثَّنائي ، والختم بالتحية وإبداء الشوق ، والسلام.

ولك أن تتأمل على سبيل المثال ، مقالته المعنونة بـ (خطاب) :

(القاهرة في ١٩٤٤/٥/١م. ← (المكان والتاريخ)

أخي العزيز .... ← (لم يذكر اسم المرسل إليه)

معذرةً إن تأخرتُ في الكتابة إليك فقد

مرضتُ مرضاً خطيراً... لقد

أضعف المرضُ جسمي ، ولكنه صهر نفسي ، ← (اعتذار ، ووصف للحال)

وأتاح لي أن أستعرض حياتي الماضية...

.....

على كل حال أحسب صداقتنا تسمح لك

أن تسرَّ بجدي وهزلي ووقاري ولَغْوي.

اكتبْ لي كثيراً ، فكتبك تقع مني موقعَ الماء ←

من خاتمة (استجداء/ تحايا وسلام)

ذي الغُلَّة الصادي.

أهلك وأصدقاؤك بخير ويسلمون عليك)[1].

(١) السابق: ٦/٣٦- ٣٩.

ومثل النص السابق مقالاته : (إلى أخي الزيات)[١] و(تحية العيد)[٢] التي لا تعدو أن تكون رسائل أباح بها للقرَّاء، وكشفها للمتلقين ؛ لما تحويه من مضمون ناسب أن يخرج من البوح الثنائي ليكون موجهاً للمجتمع ، أو لأن طرافة الرسالة تغريه بإمتاع القرَّاء ، وإطلاعهم على لقطة من لقطات حياته الخاصة.

غير أنَّ بعض مقالاته وخواطره تقترض شيئاً من سمات الرسالة، فيظهر التناص بين الجنسين بدرجة أقل، فالبوح الذاتي الثنائي الذي تغيب وراءه مقصدية الكاتب، وختم مقالته بعبارة: (إلى اللقاء) الملتصقة بختام الرسائل، والاستهلال باسم المرسل إليه ، وتواتر كلمة "أخي صديقي" في المقالة الواحدة، ملامح تطفو على مقالاته وخواطر أديبنا أحياناً، وتحيلها إلى جنس الرسالة.

إلا أنَّني أُؤكِّد من جديد أنَّ التناص بين جنسي المقالة والرسالة كان أقل حظوة من غيره في كتاب "فيض الخاطر" ذلك أن أديبنا أفاد من طاقات الرسالة ذات الخصوصية بين المرسل، والمرسل إليه، لكنَّه يجد نفسه تلحُّ عليه في نفث همومه، وإبداء أسراره، وربما أُفرِغت تلك الطاقة في كتابه (حياتي) وضاقت في كتابه هذا.

رابعاً- فيض الخاطر: مقالات أم خواطر "صراع الجنسين الأدبيَّيْن":

ويبقى السؤال الأهم قائماً: هل نصوص "فيض الخاطر" من جنس المقالة أم الخاطرة؟!

وقبل أن أجيب عن هذا التساؤل المهم لابدَّ أن أشير سريعاً إلى أنَّ بعض النقاد وجد عُسْرَاً في التفرقة بين الجنسين، وسلكهما معاً. وآخرون فرَّقوا ، وأوجدوا حدوداً صارمة بينهما ، وعالجوا كل جنسٍ على حدة، ومن أبرز تلك الفروق ما

(١) السابق: ٤/٦٢.

(٢) السابق: ٤/١٠١.

يأتي :

- الخاطرة ليست فكرة ناضجة، ولا وليدة زمن بعيد، وإنما هي فكرةٌ عارضةٌ طارئة[١]، (فليس فيها عمق، ولا سعي إلى الإلمام بما يعرضه الكاتب من رؤى)[٢].
- الخاطرة لا تحتاج إلى الحجج والشواهد والبراهين، ولا تتسع للأخذ والرد، بعكس المقالة[٣].
- الخاطرة أقل حجماً من المقالة ؛ ذلك أنَّ كاتبها يعالج الفكرة التي انقدحت في ذهنه على نحو موجزٍ سريع[٤]، فهي كما يراها أحد النقاد: (ومضة فكرية، ولمحة ذهنية، تركّز على موقف عارض، أو حدثٍ واقع، أو معنى طارئ، أو هاجسٍ عابر، وتمتاز بحيوية الموضوع، والإيجاز والتركيز...)[٥].
- الخاطرة تُكتَبُ بلغةٍ أدبية عالية ،وتكون مفعمة بالعاطفة والشعور، موشحة بالخيال...، حتى قارب بعضهم بينها، وبين ما أسموه بـ (الشعر المنثور)[٦].

---

(١) الأدب وفنونه: ١٦٨.

(٢)المقالة في الأدب السعودي الحديث من سنة ١٣٤٣هـ- ١٤٠٠هـ د.محمد العوين نشر : المؤلف ، ط : ١ ، ١٤١٢هـ /١٩٩٢م : ١/٢٣٢.

(٣) انظر: السابق: ١٦٨.

(٤) انظر: السابق :١٦٨ ، وفي النثر العربي وفنون الكتابة ، د.توفيق أبو الرب ، دار الأمل للنشر والتوزيع- إربد، ط : ٢ ، د.ت : ١٦١.

(٥) فن المقال بين التراث والحداثة ، د.عبدالله حسن سليمان ، الدار المصرية –الإسكندرية ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م: ٨٨.

(٦) في النثر العربي وفنون الكتابة : ١٦٢.

وإن كان ثمة فرقٌ بين المقالة والخاطرة فإنَّ تقاربهما واضح، وتماسّهما بيِّن، غير أن ما يعنيني –هنا– أنَّ عدداً من المؤرخين والنقاد توهموا أنَّ نصوص "فيض الخاطر" من جنس الخاطرة، وجعلوا أحمد أمين بهذا الكتاب رائداً من روَّاد الخاطرة الأدبية[١]، والحقيقة أنَّ هذا الكتاب ديوانٌ نثري ضمَّ بين دفتيه عدداً كبيراً من المقالات، وتناثرت فيه خواطر يسيرة، من أبرزها ما جاء في الجزء التاسع الذي ضم أربع عشرة خاطرةً جاءت تحت عنوان (خواطر)[٢] من أبرزها: (مدرسةٌ جديدة)[٣] و(الإنسان طفل صغير)[٤] و(حوض اللذة)[٥] و(البتُّ والتردد)[٦] وجاءت في إطار الخاطرة، واتسمت بالإيجاز، ومعالجة الفكرة بشكل سريع، وقلة الاسترسال في الأدلة والبراهين.

وقد سجل أحمد أمين اعترافاً صريحاً في مقدمة كتابه "فيض الخاطر" بأنَّ الكتاب ما هو إلا مجموع مقالاتٍ كتبها في مجلة "الرسالة" و"الهلال" وبعضها لم ينشر[٧].

ولَّما كان جنس الخاطرة قليلاً في هذا المجموع وضع له عنواناً جديداً، وأدرج تحته ما كتب من خواطر، وهذا دليل واضحٌ على إدراكه للفرق بين الجنسين، وإلا لما وضع للأخير عنواناً مستقلاً.

وأعاد في كتابه (حياتي) ما سجَّلَهُ في مقدمته من تصريحٍ بأنَّ "فيض الخاطر" ما

---

(١) انظر على سبيل المثال: الأدب وفنونه: ١٦٨، في النثر العربي وفنون الكتابة: ١٦١.

(٢) انظر: فيض الخاطر: ٢٤٨/٩.

(٣) انظر: السابق: ٢٤٨/٩.

(٤) انظر: السابق: ٢٥١/٩.

(٥) انظر: السابق: ٢٦٥/٩.

(٦) انظر: السابق: ٢٧٥/٩.

(٧) انظر: السابق (المقدمة).

هو إلا مقالاتٌ لملَمَها من هنا وهناك وأضاف عليها شيئاً لم يُنَشر، فقال : (وبعد أن كتبت هذه المقالات في "الرسالة" و"الثقافة" طُلِب إليَّ أن أكتب في مجلات أُخرى: الهلال، والمصور ، وغير ذلك ففعلت، ولَّما كَثُرَت مقالاتي جَمَعتُ ما كَتَبتُ وزدت عليها، وأودعتها ثمانية أجزاء سميتها "فيض الخاطر")[1] .

ويبدو أنَّ سِرَّ الوهم الذي سرى عند عددٍ من النقاد والمؤرخين هو عنوان الكتاب "فيض الخاطر" فلفظة "الخاطر" أوهمتهم بأنَّ ما جمعه في هذا الديوان النثري الضخم ما هو إلا خواطر فحسب، وهذا غير صحيح ؛ ذلك أنَّ أحمد أمين استخدم لفظة الخاطر استخداماً لغوياً صرفاً، فنصوصه التي انتقاها إنما هي قطعةٌ من خاطره، ونابعة من وجدانه، فأراد أن يُشعر المتلقي منذ الوهلة الأولى لمطالعة عنوان الكتاب بهذا المبتغى، ولذا جاء في مقدمته ما يوحي بأن تلك النصوص ممتزجة بشخصيته ، معبرةٌ عن ذاته، فاض بها خاطره، واستجاب لها قلمه ، يقول : (هذه بعض مقالات نُشِر بعضها في مجلة "الرسالة" وبعضها في مجلة"الهلال" وبعضها لم يُنشر في هذه ولا تلك. استحسنت أن أجمعها في كتابٍ لا لأنها بدائع أو روائع، ولا لأن الناس ألحوا عليَّ في جمعها...، ولكن لأنها قِطعٌ من نفسي أحرص عليها حرصي على الحياة، وأجتهد في تسجيلها إجابةً لغريزة حب البقاء ، وهي مجموعة أدلُّ منها مفرَّقة، وفي كتابٍ أبين منها في "أعداد" ...

بعض هذه المقالات وليد مطالعات هادئة، وبعضها نتيجة عاطفة مائجة، وكلها تعبيرات صادقة.

أصدق كاتب في نظري من احتفظ بشخصيته، وجعل أفكاره وعواطفه تمتزج

(١) حياتي: ١٧٩.

امتزاجاً تاماً بأسلوبه، وخير أسلوب عندي ما أدَّى أكثر ما يمكن من عسرٍ وغموض والتواء، ورَاعَكَ بجمال معانيه أكثر مما شغلك بزينة لفظه، وكان كالغانية تستغني بطبيعة جمالها عن كثرة حليها)[1].

وبهذا العرض يتضح أنَّ كتاب "فيض الخاطر" ضمَّ جنسين أدبيين هما: المقالة (وهي الأغلب) والخاطرة، وبَزَغَ التناص الأجناسي في تلك النصوص بتفاوتٍ ظاهر، لم يحجب رؤيتنا للقالب الأصلي الذي فُرِّغت فيه الأفكار والعواطف، ولم يحل بين القارئ وتمييزه للجنس الأدبي، وأعود من جديد لأقول: إنَّ نظرية تراسل الأجناس الأدبية لم تكن حاضرة بشكلٍ واعٍ في ذهن أحمد أمين عند كتابته للمقالة، وإنَّما عَبَرَت خصائص الأجناس الأدبية الأخرى إلى نصوصه، ونَمَت في بعض مقالاته وخواطره - وهو الناقد الذي يمايز بين الأجناس والفنون- لأن باحة المقالة والخاطرة باحةٌ رحبة تتسع لاستيعاب خصائص الأجناس الأخرى بشكلٍ ربما لا تستطيعه أجناسٌ أدبية أخرى، فكان من الطريف أن أتتبع الظواهر، وأستجلي التأثيرات في هذا الديوان النثري الذي يعدُّ منارةً من منارات الأدب النثري في العصر الحديث.

* * *

(١) السابق (المقدمة).

الخاتمة:

تناولت هذه الدراسة عينةً من أدب الأديب أحمد أمين تمثلت في كتابه الشهير (فيض الخاطر) مع محاولة جاهدة لتطبيق نظرية التناص الأجناسي على تلك النصوص ، واستنتاج أبرز مظاهر التناص وتأثيراته.

ونبع اختيار العينة من استشعار الباحث بتردد كثير من النقاد والباحثين في تصنيف نصوص العينة ، ولكون الكاتب اسْتَقْرَضَ -ربما بدون وعي وإدراك كامل- من خصائص الأجناس الأدبية الأخرى ما أسهم في زيادة القيمة الجمالية لبعض نصوصه.

ولا ننسى أنَّ أحمد أمين أديبٌ مبدع ، وناقدٌ حاذق ، وإبداعه قد يُحاكم بنظراته النقدية ورؤاه للقضايا الأدبية ، وربما كانت نظرته النقدية للمقالة بأنها جنس مفتوح يخضع لهوى الكاتب وذوقه مما أسهم في حضور خصائص الأجناس الأدبية الأخرى ، والإفادة منها .

وقد كانت أبرز الأجناس الأدبية تعالقاً بالمقالات والخواطر التي جمعها أحمد أمين في هذا الديوان النثري : السيرة الغيرية ، والذاتية ، والقصة ، والشعر ، وسجلت خصائص الرسالة حضوراً نسبياً ضعيفاً .

وطاقات تلك الأجناس الأدبية دعمت القيمة الجمالية في نصوص "فيض الخاطر" ، وتغيير النمط السائد ، ومفاجأة المتلقي ، وتشويقه ، والوصول إلى المتلقي ومرام الكاتب بطرائق مختلفة ، كما كانت وسيلةً استجلبها -أحياناً- للتعبير عن همومه ، وبثِّ ما في خاطره تجاه الظروف الشخصية والسياسية التي عايشها .

إنَّ كتاب" فيض الخاطر" الذي تردَّد على ألسنة النقاد والدارسين منذ عقود من الزمن ضمَّ بين دفتيه عدداً كبيراً من المقالات التي نشرها كاتبها في صفحات

المجلات والصحف، أو مما لم يُنشَر فكان هذا الكتاب وعاءً مناسباً لنشره، وضمَّ بالإضافة إلى تلك المقالات عدداً من الخواطر تظهر على استحياء بين فينة وأُخرى، خلافاً لما ساد عند عددٍ من النقاد والدارسين بأنَّ هذا الكتاب يمثل أنموذجاً للخاطرة بحدودها الدقيقة المتعامدة على الإيجاز والتكثيف، وضمور الأدلة والشواهد، واللغة الشعرية الموحية، والفكرة العارضة ، وغير ذلك من الحدود التي لا تبعدها كثيراً عن المقالة.

غير أن قالب المقالة أرحب ؛ حيث إنَّها تتسع لاستيعاب خصائص الأجناس الأدبية الأخرى، والاقتراض منها، وبخاصة القصة والسيرة الذاتية، أمَّا الخاطرة فهي إلى الشعر أقرب ؛ ذلك أن تجويدها يقتضي أن تُكتب بلغة شعرية راقية، تعتمد على الانتقاء اللفظي، واتساق العبارات، وبراعة الخيال، وغير ذلك من خصائص الشعرية.

واتضح من خلال البحث أنَّ تطبيق النظريات النقدية الحديثة على نصوص سابقة لنضج المنهج النقدي ناجعةٌ –أحياناً– للوصول إلى نتائج مهمة ذات أثرٍ في تجلية القيم الجمالية ربما من زوايا لم يلمسها النقاد من قبل.

وبعد فإنَّ كتاب"فيض الخاطر" مجموع نثري متنوع، ضمَّ موضوعات متفرقة، وأفكاراً متنوعة، بعضها استدعى فيه القديم، وآخر عالج فيه قضايا العصر والمجتمع، كما ضمَّ مقالات علمية ، وإلى جوارها خواطر أدبية، واسترعى انتباهي ما نفثه فيه من لغةٍ أدبيةٍ راقية تدثرت بها جملة كبيرة من نصوصه، ولا زال هذا الديوان أرضاً خصبة للبحث، والاستجلاء، كما أنَّ كاتبه لم يحظ بالإشادة والإبراز كما حظي بها غيره ممن هم أقل نتاجاً وإبداعاً.

والحمد لله أولاً وآخراً.

أبرز المصادر والمراجع :

- **أدب المقالة**، د.عبدالعزيز شرف، مكتبة لبنان "ناشرون" بيروت، ط: ١٩٩٧م.
- **الأدب وفنونه**، د.عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي- القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م : ١٨٤.
- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين- بيروت، ط: ٧- ١٩٨٦م: ١/١٠١.
- **البلاغة العربية "قراءة أخرى"** د.محمد عبدالمطلب، مكتبة لبنان "ناشرون"١٩٩٧م .
- **البلاغة ومقولة الجنس الأدبي (مقالة)** " محمد مشبال، مجلة عالم الفكر، العدد٢٠٠١م .
- **تاريخ النقد الأدبي عند العرب "نقد الشعر"** د.إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط: ٢، ١٩٩٢م.
- **التناص في شعر الرواد"دراسة"**، د.أحمد ناهم، دار الآفاق العربية القاهرة ، ط: ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.
- **التناص نظرياً وتطبيقاً "مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية رؤيا**، هاشم غرايبة، وأحمد الزعبي، مكتبة الكتاني- الأردن، ط: ١٩٩٣، ١م.
- **حياتي** ، أحمد أمين، المكتبة العصرية، صيدا –بيروت، ط: ١ ، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م.
- **الحيوان**، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- **الخبر في الأدب العربي**، د.محمد القاضي، كلية الآداب بتونس ودار الغرب الإسلامي –بيروت، ط: ١- ١٤١٩هـ .
- **الخطيئة والتكفير**، د.عبدالله الغذامي، نشر النادي الأدبي في جدة، ط ١، ١٩٨٥م.
- **دلائل الإعجاز**، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، مطبعة المدني- القاهرة، ط: ٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .
- **الدلالة المرئية "قراءات في شعرية القصيدة الحديثة"** ، د.علي جعفر العلاق، دار الشروق للنشر والتوزيع- عمان، ط: ١- ٢٠٠٢م.
- **دليل الناقد الأدبي**، نبيل راغب، دار غريب للطباعة، ١٩٨١م.
- **السيرة الذاتية في الأدب السعودي**، د.عبدالله الحيدري، دار طويق للنشر والتوزيع- الرياض، ط: ٢، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- **السيرة الذاتية في التراث**، د.شوقي محمد المعاملي ، مكتبة النهضة المصرية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٧م.

- **علم النص** ، جوليا كرستيفا، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبدالجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط: ١، ١٩٩١م.
- **فن المقال بين التراث والحداثة**، د.عبدالله حسن سليمان، الدار المصرية –الإسكندرية ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- **في النثر العربي وفنون الكتابة**، د.توفيق أبو الرب، دار الأمل للنشر والتوزيع- إربد، ط: ٢، د.ت: ١٦١.، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **فيض الخاطر**، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: ٤- ١٩٥٨م .
- **في نظرية النص الأدبي (مقالة)** د.عبدالملك مرتاض، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٢٠١.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق كامل محمد عويضه، دار الكتب العلمية –بيروت، ط(١) ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .
- **مصطلحات النقد العربي السيمياءوي**، د.مولاي علي بو خاتم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٥م.
- **معالم كتابة المقالة**، جاكلين بيرك، ولويس بوتان، ترجمة: د.مانع الجهني، نشر: النادي الأدبي في القصيم، ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م .
- **معجم مصطلحات الأدب**، مجدي وهبة ، مكتبة لبنان- بيروت، د.ت.
- المعجم المفصل في الأدب، د.محمد التونجي، دار الكتب العربية، بيروت، ط: ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- **مفهوم الشعر "دراسة في التراث النقدي"** د.جابر عصفور، دار التنوير للطباعة والنشر- بيروت، ط: ٣، ١٩٨٣م.
- **المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث**، د.عطاء كفافي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط: ١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م
- **المقالة في الأدب السعودي الحديث من سنة ١٣٤٣هـ- ١٤٠٠هـ** د.محمد العوين، نشر: المؤلف، ط: ١، ١٤١٢هـ /١٩٩٢م .
- **من صيد الخاطر (في النقد والأدب) د.وليد قصاب**، دار البشائر- دمشق، ط: ١- ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، حازم القرطاجني، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط : ٢، ١٩٨٩م.
- **موسوعة السرد العربي**، د.عبدالله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط : ١، ٢٠٠٥م.
- **نظرية الأدب**، رينيه ولك، وواستن وارين، ترجمة محيي الدين صبحي، ود.حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ١٩٩٧م.
- **نظرية الأدب**، لعددٍ من الباحثين السوفيت، ترجمة د.جميل نصيف التكريتي، وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م.
- **النقد الأدبي**، أحمد أمين، دار الكتاب العربي- بيروت، ط : ٤، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- **النقد والحداثة**، عبدالسلام المسدي، دار الطليعة، بيروت، ط : ١، ١٩٨٣م.

* * *